أ فريد تابتي

الشّعر العذريّ

تمهيد:

سُئل الشّاعر كُثيّر عزّة يوما: ("ما بقي من شعرك؟ قال: ماتت عزّة فما أطرب، وذهب الشّباب فما أعجب، ومات ابن ليلى – يعني عبد العزيز بن مروان – فما أرغب. وإنّما الشّعر بهذه الخلال")[1]، وبذلك يكون قد وضع أمام القارئ كلّ الدّوافع التي قد تجعل الشّاعر شاعرا، ولعلّ من هذه الدّوافع (الطّرب)، ولا يكون الطّرب هنا إلاّ بالمرأة. كثيرا ما كانت المرأة هي صانعة الشّعراء، لأنّ المرأة، هذا الكائن الجميل الضّعيف، نصف الرّجل، هي التي يتحقّق وجود الرّجل بها، ولذا كان غيابها عنه يعني غياب نصفه الذي يحمل نصف وجوده، وليس عجيبا أن نجد الشّعراء الجاهليّين يفتتحون قصائدهم بذكرها، رغم أنّنا (لم نجد للحب والغزل صدى في القصيد إلاّ في أبيات النسيب، الذي يصف الجمال المادي وصفا حسيا، ليس فيه شيء من طرب العاشق ولوعته، وذكريات شبابه وأحبابه، والذي أخذ صورة منهجية جامدة في مطلع القصيدة)[2]، ولكنْ، مع ذلك فقد احتلّ ذكر المرأة مطالع القصائد، التي قد تتضمّن أغراضا أخرى متعدّدة، وقد يكون سبب ذلك الأخلاق العربيّة في نظام قبليّ جاهليّ شديد المحافظة، تمثّل فيه المرأة الشّرف العربيّ في أسمى معانيه؛ إنّ (هذا الباب [...] لم يكن مفتوحا لهم على مصراعيه بسبب التّقاليد الصّارمة التي كانت تفرض سلطانها على المجتمع القبليّ، وتأخذ فيه شكل المقدّسات التي لا يمكن التّحلّل منها. وكان "الشّرف" أحد هذه التّقاليد المقدّسة، فلم يكن من اليسير على طلاّب اللّهو والمتعة أن يعبثوا في المجتمع القبليّ كيف يشاءون، والمجتمع يقف منهم موقف المتفرّج)[3].

حين حلّ العصر الأمويّ حلّت معه معطيات جديدة، حدّدها النّظام السّياسيّ الجديد بما يحقّق له مصالحه، ويضمن له محافظته على السّلطة، وإذا ركّزنا اهتمامنا من هذا الجانب على شعر الغزل، وجدنا أنّ هذا النّظام قد وفّر كلّ الظّروف الملائمة ليكون لشعر الغزل وجه خاصّ به في هذا العصر، فـ(ليس من شكّ في أنّ الغزل فنّ من الفنون الرّفيعة، وأنّه لون من ألوان الحياة الباسمة الصّافية، لا تهفو إليه الأفئدة إلاّ إذا كانت خالية من شوائب الحياة، وآلام الزّمن، ولا تهتزّ به القلوب إلاّ إذا كانت غردة طروبة، تجد لها من شعر الغزل ما يغذّي هذا الطّرب ويقوّيه وينمّيه)[4]، إذن، فقد توفّرت كلّ الأسباب التي بعثت الغزل في صورة مغايرة للتي عُرف بها منذ العصر الجاهليّ؛ أسباب اللّهو، والاختلاط بالنّساء، وكثرة الجواري، خاصّة من السّبايا الأجنبيّات، وشيوع القيان والغناء، حتّى أنّ النّاس حين نظروا (إلى الغزل في العصر

---

[1] - حسن أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة مصر، ط 1، القاهرة، 1947، ص: 15.

[2] - كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج 3، دار المعارف، مصر، ط 3، ص: 50.

[3] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 83.

[4] - حسن أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة مصر، ط 1، القاهرة، 1947، ص: 37.

الأمويّ، فرأوا شعراء يتغزّلون ولا يقولون في شيء غير الغزل، فتكون القصيدة وقفا على هذا الغرض لا تتعدّاه إلى غيره. بل لقد وقف بعضهم نفسه على الغزل لا يقول غيره، فاتّخذوا من ذلك سبيلا إلى القول بأنّ الجاهليّ لم يعرف هذا النّوع من الغزل، ولم يقل فيه وإنّما كان غزله تابعا لأغراضه الأخرى من مدح أو فخر أو غيرهما)[5]، بل إنّ شعراء الغزل في العصر الأمويّ قد اكتفوا بالغزل وحده، فـ(لم يُعرف لهم في غير الغزل شعر، وإن ورد عن بعضهم شيء من ذلك فهو نادر جدّا)[6]، لأنّ بيئة الحجاز التي عرفت هذا الشّعر، عرفت الظّروف نفسها، وفيها مال الشّعراء إلى هذا الشّعر، بعيدا عن الحروب الشّعريّة السّياسيّة التي كانت مشتعلة في الشّمال. لقد كان شعر الغزل في هذا العصر، رغم تعلّقه المباشر بالمرأة والعواطف والمغامرات والمآسيّ، ناطقا بظروف العصر، وقد غَنِيَ (بثروة في الشّعراء، وثروة في الشّعر، وثروة في الألفاظ والمعاني)[7].

مصطلح الشّعر العذريّ:

بداية، ("يبدو أنّ هذه التّسمية – أي تسمية هذا الغزل بالغزل العذريّ – هي تسمية حديثة أطلقها الدّارسون والنّقّاد المحدثون على هذا النّمط من الحبّ الذي مثّله ذلك الغزل الذي عُرف بعفّته ونزاهته وصدقه، أمّا القدماء فلم يُؤْثر عنهم مصطلح الغزل العفيف")[8]، وعليه، فالدّارسون المحدثون هم واضعو هذه التّسمية، ولم يُعرف هذا الشّعر بها قديما، وذلك لكثرة الدّراسات والبحوث التي أنجزها عنه المحدثون، والتي حاولت نفض الغبار عن كلّ ما يتعلّق به، بينما القدماء الذين كانوا الأقرب إليه زمانيّا، لم يتطرّقوا إلى كثير من قضاياه، ربّما لأنّهم كانوا يرونها حينها في غير حاجة إلى ذلك، وربّما كانوا مبهورين بنصوصه، فاهتمّوا بها، وأُعجبوا بأصحابها فجعلوهم أبطالا لقصص سمرهم، واكتفوا باعتبار ذلك الشّعر غزلاً، موضوعه المرأة. أمّا الأمر المؤكّد الذي ورد عند المحدثين، عن (مصطلح (الحبّ العذريّ)، فإنّه من متبيّنات النّقد في العصر الحديث؛ بوصفه دالّة على عفاف الحبّ ونقاوته مجرّدا من الزّمان والمكان، وليس من الحكمة أو المنطق ربطه بقبيلة (عذرة)؛ لأنّ الحبّ حالة كونيّة وذاتيّة في الآن نفسه، تنشأ مع نشأة المخلوقات ولا تحتكم لسياق زمانيّ أو مكاني بعينه، وإن ربطه بقبيلة أو مجتمع مّا، يُعدّ بمثابة صكّ اعتراف بتجريد وجودها قبل ذلك الزّمان أو ذلك المكان، وهذا ما لا يقبله الاستدلال المنطقيّ للبحث الذي أكّد وجودها قبل ذلك الزّمان)[9].

---

[5] - محمود مصطفى: الأدب العربيّ وتاريخه في عصريْ صدر الإسلام والدّولة الأمويّة، ص: 276.

[6] - محمود مصطفى: الأدب العربيّ وتاريخه في عصريْ صدر الإسلام والدّولة الأمويّة، ص: 281.

[7] - حسن أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة مصر، ط 1، القاهرة، 1947، ص: 197.

[8] - كريم قاسم جابر الرّبيعيّ: الغزل العذريّ حتّى نهاية العصر الأمويّ أصوله وبواعثه وبنيته الفنّيّة، مذكّرة ماجستير، كلّيّة التّربية، جامعة البصرة، 2012، ص: 03.

[9] - أسيل محمّد ناصر: أثر التّرميز الفنّيّ في شعر الغزل العذريّ، الأنساق – الأبعاد - المستويات، ص: 22، 23.

وبناءً على ما سبق، فالحبّ العذريّ غرض شعريّ عربيّ أصيل، موضوعه العلاقة الطّبيعيّة التي تجمع الرّجل بالمرأة، والنّظرة التي ينظر بها الرّجل إلى المرأة "الحبيبة" – إن كان هو الشّاعر، لأنّ المرأة الشّاعرة أيضا تقول غزلا – ولكنّ الميزة التي تجعله (عذريّا) هي أنّه يميل كلّ الميل إلى الرّوح، تاركا الجسد موضوعا لغزل آخر معروف بالغزل المادّيّ أو الماجن، والتّركيز على الرّوح مرتبط بصدق الحبّ، ومعاناة المحبّ، لأنّه مرتبط بتجربة خلّفت جروحا عميقة في روحه، ولم يجد لها من دواء إلاّ الشّعر، هذا ما جعل (الحبّ العذريّ صورة مصفّاة مهذّبة من صور الحبّ، تسمو على لذّة الحسّ، وتتعالى عن شهوة الجسد، ويكاد يكون الأدب العربيّ من أسبق آداب العالم في تصوير الحبّ والتّعبير عن العاطفة)[10]، ولذلك، فـ(الشّعر العذريّ هو أروع صورة عربيّة لشعر الحبّ، فقد محّص العشق قلوب هؤلاء الشّعراء وطهّرها وصفّاها، بل جعلها طهرًا وصفاءً خالصًا)[11].

أمّا التّعريف الاصطلاحيّ للحبّ / الغزل / الشّعر العذريّ فهو (المنسوب إلى بني عذرة قبيلة يمانيّة مشهورة بالعشق والعفّة)[12]، أو هو (عنوان العفّة في الحبّ والإخلاص له والفناء فيه حتّى لقد عبّر به الصّوفيّة عن حبّهم للذّات الإلهيّة دلالة على نقاء هذا الحبّ وصفائه وسموّه عن التّعلّق بالمادّة، وفي ذلك يقول البوصيريّ وهو من الصّوفيّة المتأخّرين:

يـــا لائمـــي فـــي الهـــوى العـــذريّ معـــذرةً منّـــي إليـــك، ولـــو أنصـــفتَ لـــم تَلُـــمِ)[13]

وهو (فكرة شعريّة – إذا صحّ هذا التّعبير – تصدر عن عاطفةعميقة قويّة، ففيها الأم من بُرَحَاء الوجد واللّذة بالوصل، والقلق للبعد، والسّرور بالقرب، وما إلى ذلك. أمّا الحبّ الأفلاطونيّ ففكرة فلسفيّة تقوم على أساس من خرافات اليونان وأساطير آلهتهم التي لا يجمعها بالنّفس الإسلاميّة جامع، ولا يسيغها ذوق اللموحد الذي اتّخذ الإسلام دينا)[14]. وتحفل كتب الأدب وتاريخه بمصطلحات كثيرة مختلفة يُقصد بها هذا الشّعر، ولا رابط بينها إلا المرأة التي تكون موضوعا له؛ كالغزل وشعر المرأة والنّسيب... أمّا تقسيم مصطلح الغزل نفسه إلى نوعين، فذلك من أجل تحديد توجّهين شائعين لدى شعراء الغزل، أحدهما أحدهم روحيّ عفيف، وثانيهما لا يهمّه من المرأة سوى الجسد، وما يحقّقه للشّاعر من متعة.

وفي موضوع المصطلح دائما، (ننقل لك هنا عبارة قدامة بن جعفر في الكلام عن النّسيب، قال: أقول إنّ كثيرا من النّاس يحتاج إلى أن يعلم أوّلا ما النّسيب؟ ونحن نحدّ فنقول: إنّ النّسيب ذكر خلق النّساء وأخلاقهنّ وتصرّف أحوال الهوى به معهنّ. وقد يذهب على قوم أيضا موضع

---

[10] - أسيل محمّد ناصر: أثر التّرميز الفنّيّ في شعر الغزل العذريّ، الأنساق – الأبعاد - المستويات، ص: 28.

[11] - شوقي ضيف: الحبّ العذريّ عند العرب، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، ط 1، 1999، ص: 25.

[12] - أحمد رضا: معجم متن اللغة، موسوعة لغويّة حديثة، المجلّد 04، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960، ص: 55.

[13] - أحمد عبد السّتّار الجواريّ: الحبّ العذريّ نشأته وتطوّره، دار الكتاب العربيّ، مصر، ص: 42، 43.

[14] - أحمد عبد السّتّار الجواريّ: الحبّ العذريّ نشأته وتطوّره، دار الكتاب العربيّ، مصر، ص: 44.

الفرق بين النّسيب والغزل، والفرق بينهما أنّ الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصّبوة إلى النّساء نسب بهنّ من أجله، فكأنّ النّسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه، والغزل إنّما هو التّصابي والاستهتار بمودّات النّساء)[15]، وبذلك يحدّد قدامة بن جعفر الفرق بين مصطلحين مهمّين في الموضوع هما: النّسيب والغزل، فيجعل الغزل (هو التّصابي والاستهتار بمودّات النّساء)، ويجعل النّسيب عبارة عن (ذكر الغزل)، وبمعنى آخر يكون الغزل هو (فعل) التّصابي والاستهتار بمودّات النّساء، بينما يكون النّسيب هو (ذكر) هذا التّصابي والاستهتار، وهو (وصف المرأة والتّمدّح بمحاسنها، وذكر ما يقع بينها وبين المغرم بها من لقاءٍ وتحيّةٍ وحديثٍ، والشّكوى من اللّوعة بها، وفقدان الصّبر عنها على ما في ذلك من عفّة وعهر واعتدال وإفحاش)[16].ومن هنا يكون الفرق شديدا بين المصطلحين.

على أنّ نسبة الشّعر العذريّ إلى قبيلة بني عذرة، وكأنّه لم يُعرف في غيرها، أو أنّه ظهر فيها أوّل ما ظهر، فذلك كما يبدو غير صحيح، فـ(لم يقتصر هذا الحبّ العذريّ على قبيلة عذرة بل لقد وُجد في قبائل أخرى غيرِها عُشَّاقٌ من هذا الطّراز منهم المجنون قيس بن الملوّح العامريّ وهو من بني عامر بن صعصعة، وقيس بن ذريح صاحب لبنى وهو من كنانة بن خزيمة. وعُرف بمثل ذلك كُثيّر بن عبد الرّحمن الخزاعيّ صاحب عزّة، وتوبة بن الحمير الخفّاجيّ صاحب ليلى الأخيليّة)[17]، ممّا يجعل صفة (العذريّ) الموصوف بها هذا الشّعر، تدلّ على العذريّة والعفّة كخلق ارتبط بشعراء هذا الاتّجاه، ولا تدلّ على (بني عذرة) القبيلة أو المكان؛ والدّليل على ذلك هو أنّ بعض رموز الشّعر العذريّ ليسوا من بني عذرة، ولكنّهم عذريّون.

أقدميّة الشّعر العذريّ العربيّ:

من الحقائق التي يلحّ على تأكيدها دارسو الأدب ومؤرّخوه أنّ الشّعر العذريّ العربيّ، رغم ارتباطه التّاريخيّ بالعصر الأمويّ، ممتدّ الجذور في التّاريخ، حتّى أنّه ليصل إلى أقدم النّصوص الشّعريّة التي وصلتنا، أمّا ارتباطه بالأمويّين فهو تشكّل جديد ممّا تفرضه سيرورة التّاريخ، وتحوّلات الوجود الإنسانيّ؛ فـ(التّاريخ لا يعرف البدايات من العدم، كما لا يعرف حدًّا يمكن أن يوسم بنهاية التّاريخ. التّاريخ تحوّلات تنبغي دراستها في مستويات عدّة، منها المستوى الخطابيّ)[18]. ثمّ إنّ ارتباط هذا الشّعر بالحجاز، في العصر الأمويّ، هو ارتباط بالبيئة التي أنجبته قديما،

---

[15] - محمود مصطفى: الأدب العربيّ وتاريخه في عصريْ صدر الإسلام والدّولة الأمويّة، الجزء الأوّل، ص: 275، (الهامش).

[16] - محمود مصطفى: الأدب العربيّ وتاريخه في عصريْ صدر الإسلام والدّولة الأمويّة، الجزء الأوّل، مطبعة مصطفى الباميّ الحلبيّ، ط 2، 1937، ص: 275.

[17] - أحمد عبد السّتّار الجواريّ: الحبّ العذريّ نشأته وتطوّره، دار الكتاب العربيّ، مصر، ص: 44.

[18] - محمّد الحدّاد: حفريّات تأويليّة في الخطاب الإصلاحيّ العربيّ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، ط 1، بيروت، لبنان، 2002، ص: 07.

ومثلما حافظت هذه البيئة على خصوصيّاتها، فقد حافظ على خصوصيّاته هو أيضا فيها؛ (يستحيل القول بأنّ هذا الحبّ لم يظهر إلاّ في أيّام بني أميّة. فالحياة الأمويّة لم تكن هي التي خلقت هذا الحبّ من عدم، أو أوجدتها لأوّل مرّة في تاريخ العرب، ولكنّها البادية العربيّة منذ أقدم عصورها هي التي خلقته وأوجدته، ثمّ كانت الحياة الأمويّة هي التي بعثته وجدّدته، ونفخت فيه من روحها فعاد خلقا جديدا كما خلقتها البادية القديمة أوّل مرّة، ثمّ مضت تطبعه بطوابعها الإسلاميّة الجديدة، فاكتملت له سماته المميّزة، واستقرّت تقاليده ومقوّماته التي اكتسب معها صورته الأخيرة وشكله النّهائيّ الثّابت، فالحبّ العذريّ ليس حبّا أمويّا، ولا حبّا انفردت به عذرة وحدها، ولكنّه حبّ البادية العربيّة في جميع عصورها)[19].

لقد عرفت البيئة العربيّة في العصر الجاهليّ هذا النّوع من الشّعر، وقد ارتبط فيما يذكره المؤرّخون بـ(طائفة من الشّعراء العشّاق أطلق عليهم الرّواة اسم "المتيّمين"، وربطوا بين كلّ واحد منهم وصاحبة له، عُرف بها، وعاش لها، ومات من أجلها، ووهب حياته وفنّه لها)[20]، وفي هذه النّقطة تحديدا مكمن الشّبه بين (الشّعراء المتيّمين) الجاهليّين، والشّعراء (العذريّين) الأمويّين. لقد أحبّوا جميعا بإخلاص ووفاء، وكانت المرأة الحبيبة عندهم جميعا خلاصة النّساء والعالم، (ومن الحقّ أنّ مجموعة الشّعر التي وصلت إلينا من هؤلاء المتيّمين قليلة بالنّسبة لما وصل إلينا من شعر العذريّين، ولكن هذا شأن الشّعر الجاهليّ كلّه، ذلك الشّعر الذي لم يصل إلينا منه – كما يقول القدماء – إلاّ أقلّه)[21]، ولكنّ الدّارس لشعر أولئك وهؤلاء واجد لا محالة أنّه (توشك الصّورة العامّة لقصص هؤلاء "المتيّمين" أن تكون نفس الصّورة التي رأيناها في قصص "العذريّين" الأمويّين. فهي قصّة حبّ متشابهة إلى حدّ بعيد، لا تكاد تختلف بين عاشقين وعاشقين إلاّ في التّفاصيل، أمّا الصّورة العامّة فهي هي)[22]، وهذا دليل قاطع على أنّ الأمويّين ليسوا مبتكريّ هذا النّوع من الشّعر، وإن كانت ظروف العصر قد هيّأت له أسباب الشّيوع والانتشار.

لا يحتاج الأمر إلى كثير من الأدلّة لتأكيده، فالبادية العربيّة هي التي أنتجتهما، ومهما تكن مظاهر التّحوّل قد لحقت هذه البادية، فإنّها لم تَطَلْ إلاّ عموميّات الحياة، والمظاهر العامّة للمعيشة، فالمسألة إذن هي أنّ (مجتمع البادية في هذا العصر [الأمويّ] تخلّص من شيئين: من روح الجاهليّة القديمة في حياته الدّينيّة والخلقيّة، ومن روح العصر الجديد في حياته الاجتماعيّة والسّياسيّة، فخَلُصَ له شيئان: الرّوح الإسلاميّ الجديد في بعض جوانب حياته، وروح البداوة الموروث في بعضها الآخر)[23]، ومعنى هذا أنّ البادية العربيّة لم تغيّر ملامحها إلاّ

---

[19] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 07، 08.

[20] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 07.

[21] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 69.

[22] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 58.

[23] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 88.

بالقدر الذي يُدخلها العصر، فبقيت في العصر الأمويّ بعيدة عن العصر في بعض شؤونه، فخالفت الشّام والعراق في توجّههما إلى السّياسة، وتوجّهت إلى الغزل، باعتبار الشّام والعراق لا يملكان ما يملكه الحجاز من تقاليد ابتدعها أهله منذ وجودهم، ثمّ إنّ الشّام والعراق قد بدآ يتلوّنان بما جاء به الآخر؛ المسلم غير العربيّ، بينما بقي الحجاز موطنا محافظا على عروبته وعربيّته، وبقيت القبيلة كمفهوم اجتماعيّ جاهليّ مستمرّة في ممارسة صلاحيّاتها، خاصّة حينما يتعلّق الأمر بالتّراث القيميّ المحافظ، الذي حدّد للبدويّ حدود الأخلاق، والتي أكّدها الإسلام بتعاليمه فيما بعد.

صحيحٌ قولُ البعضِ: (لمّا جاءت الدّولة الأمويّة ونَزْعَتُهَا جاهليّة، ووازع الدّين قد ضعف أثره في القلوب، والخلفاء يرون من تمام سياستهم إطلاق الألسنة بالقول، أكثرَ الشّعراءُ من القول في الغزل، فكان منهم عشّاقٌ برح بهم الحبّ وملكم جمال المرأة، وقد صقلتها المدنيّة وورثت من الجمال الفارسيّ والرّوميّ نصيبا، فكثر العشق وساعد عليه أيضا صيرورة الحميّة والغيرة الجاهليّة إلى الاعتدال، فتحدّث النّساء إلى الرّجال في غير حرج كبير. بل لقد أرسلن إلى من عرفنه غَزِلاً يستزرنه ليصبن من اللّهو وليكون من حظّهنّ ذكر يشيع على لسانه. ولن تترفّع عن ذلك نساء الخلفاء لما انطبع في المرأة من حبّ الثّناء، فقد ذكروا أنّ أمّ البنين زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضّاح اليمن أن يشبّب بها، فلمّا فعل قتله الخليفة)[24]، ولكن حينما نطالع نصوص العذريّين نجد أنّ العفّة كانت متجذّرة فيهم، رغم أنّ الفحش قولا وفعلا صفة إنسانيّة لا تخلو في مجتمع مهما كان، ثمّ إنّ زوجة الوليد بن عبد الملك لا يمكن أن تمثّل سوى بنات الملوك، أمّا بنات البدو الذين حملوا شعار (النّار ولا العار)، و(المنيّة ولا الدّنيّة) منذ الجاهليّة، فلا يمكنهنّ التّفكير في فعل كذلك الفعل، مهما حاول الأمويّون إلهاء النّاس،ومنذ الجاهليّة كانت مسألة المرأة (مسألة حسّاسة شديدة الخطر، لأنّ العربيّ كان ينظر إلى المرأة على أنّها حُرمة من الحُرُمات، عليه واجب المحافظة عليها، والدّفاع عنها، وبحقٍّ سمّوها "حرمةً"، وبحقٍّ قالوا "كلُّ امرئ يَذُبُّ عن حرِيمِه")[25].

الواقع أنّنا حين نتحدّث في موضوع الشّعر في العصر الأمويّ مضطرّون موضوعيّا إلى الحديث في موضوع السّياسة، باعتبار أنّ الشّعر كلّه في هذا العصر قد تشكّل كما أراده له دهاء الأمويّين، وإذا كان الشّعر السّياسيّ في هذا العصر يدين للأمويّين الذين وفّروا له كلّ أسباب الظّهور والشّيوع، فإنّ للأمويّين دورا أيضا في بعث الغزل وانتشاره وشيوعه، إلى الحدّ الذي جعل الدّارسين يقتنعون بأنّه وليد هذا العصر. يبقى الشّعر ذاتيّا مرتبطا بالفرد، ولكنّ الظّروف العامّة للسّياسة والمجتمع قادرة على جعله ظاهرة عامّة، مع بقائه فرديّا لا يخرج عن حدود

[24] - محمود مصطفى: الأدب العربيّ وتاريخه في عصريْ صدر الإسلام والدّولة الأمويّة، ص: 277، 278.

[25] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 83.

الذّات، فإذا كان الشّاعر العذريّ قد اشتهر برقّته والحبّ حتّى الموت في سبيل الحبيبة، فالقضيّة فرديّة لا تخرج عن حدود هذا الشّاعر الفرد، ولكن حين يصبح العذريّون كلّهم يموتون في سبيل حبيباتهم، فالقضيّة التي تبقى دائما قضيّة أفراد، تصبح قضيّة عامّة، تخصّ قبيلة عذرة كلّها، ممّا جعل أحد الباحثين يؤكّد على أنّ (المحبّ العذريّ رجل ضعيف الشّخصيّة، لأنّه في الحقيقة رجل ناقص الرّجولة. إنّ الحنين الشّعريّ في هؤلاء العذريّين، يجب أن يكون تعويضا نفسانيّا لهم عما فقدوه من قدرة الشّعراء المغامرين على التّمتّع بالحياة الطّبيعيّة تمتّعا تامّا كاملا)[26]، ولا يمكن أن يكون رجال عذرة من طينة مختلفة عن طينة بقيّة الرّجال، وإنّما تشكيل (الرّجولة) في هذا العصر بالتّحديد، في الحجاز، من صنع الأمويّين الذين صنعوا في غير الحجاز (رجالا) في هيئة أخرى؛ لقد كانوا (كانوا يعانون من ضغط المطالبين بالخلافة، ومن متاعبهم، كالزّبيريّين والخوارج والشّيعة، فقد عملوا جهدهم على أن يشغلوا كلّ منطقة بما يلائمها، وهكذا استطاعوا أن يشغلوا حاضرتيْ الحجاز: المدينة ومكّة بالأموال التي أغدقوها، وبما تدفّق عليهما من جواري الفرس والرّوم)[27]، وهذا يدلّ على أنّ الحجاز لم يكن خارج الزّمان، منقطع الصّلة عمّا كان يحدث حوله، فمن المؤكّد (تماما أننا أمام واقع اجتماعي اقتصادي يسّر لهؤلاء الفتيان الفراغ من العمل، والانصراف للهوى بكل طاقاتهم وأوقاتهم، وأمام واقع سياسي من جانب بني أمية، لشغل هذه البيئة البدوية بقصص الحب المشتعل دائما، وما ينجم عنه من أشعار تغذي الغناء، وتزيد عواطف الناس التهابا، تماما كما شغل الأمويون أهل البصرة في نفس الوقت بفن الهجاء ونقائضه، التي استقطبت اهتمام البصريين في سوق المربد، وكما نجح الأمويون في شغل المجتمع المكي والمدني بالترف والجواري والشعر والغناء)[28].

الحبّ العذريّ بين العفّة والمادّيّة:

يُدخلنا الحديث عن الحبّ العذريّ عالم الرّوح والمثل والقيم، بعيدا عن عالم المادّة، حيث يقترب الإنسان من أن يكون مجرّد كائن حيّ، يلهث وراء كلّ ما يشبع رغباته. ولكنّ المغالاة في الحديث عن الرّوح هي محاولة لإلغاء شطر أساسيّ من الإنسان، هو الذي يمنحه وجوده الواقعيّ بين غيره من الكائنات. صحيح أنّ الرّوح وعالمها هي التي جعلت الإنسان سيّدا للكائنات، ولكنّ الرّوح لا يمكن إلاّ أن تستقرّ في الجسد، ليتحقّق وجود هذا الجسد في عالم الكائنات الحيّة، وللجسد الحيّ مطلّباته، لأنّه مسكن الرّوح.

---

[26] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص: 368.

[27] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، مكتبة الآداب، ط 1، القاهرة، 1993، ص: 25.

[28] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 4.

إنّ تركيز الشّعراء العذريّين على الجانب الرّوحيّ في المرأة المحبوبة، قد جعلهم يهملون الجسد، أو على الأقلّ هذا ما يبدو للوهلة الأولى، وذلك لا يمكنّهم أبدا من أن يكونوا أشخاصا أسوياء، والواقع أنّنا حين نتابع قصص العذريّين جميعهم، نلقاهم أشخاصا مختلفين؛ في الطّريقة التي أحبّوا بها، وحياة العذاب التي عاشوها، ثمّ النّهاية المأساويّة التي انتهوا إليها، ولهذا يبدو لنا (الحبّ العذريّ في وضعه الصّحيح صراعا بين الجسد والرّوح، يتحوّل في نفس العاشق – لأسباب شخصيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة – إلى رغبات مكبوتة، وهي رغبات كان العشّاق العذريّون يتسامون بها فوق مستوى الغرائز، ويرتفعون بها فوق مستوى الشّهوات، ويستعلون بها فوق رغبات الجسد. وشعر العذريّين كلّهم – بدون استثناء – وأخبارهم تضوع بهذا العطر النّقيّ الصّافي، عطر الطّهر والعفّة والفضيلة)[29]، والحديث عن الرّغبات المكبوتة هو حديث عن رغبات جسديّة لم تنل حظّها من الإشباع، فبقيت في لاوعي الشّاعر تبحث عن عمّا يشبعها، وتظهر على شكل سلوكات وتعابير تدلّ على أنّ صاحبها ليس طبيعيّا، ولذلك، و(في ظلّ هذه المثالية المجرّدة عاش العذريّون في صراع لا تهدأ ناره، ولا يخمد أواره، بين العالم الواقعيّ العمليّ الذي يعيشون فيه، والعالم المثاليّ النّظريّ الذي يعيشون له، وهو عالم أفلح العذريّون فعلا في خلقه لأنفسهم، ولكنّهم عاشوا فيه يكابدون أحزانهم القاتلة وهمومهم السّود، ويعانون اضطرابا لا يرون في ظلماته سبيلا إلى الاستقرار، وحيرة لا يعرفون بين أعاصيرها شطّا للنّجاة)[30]، بل إنّ من الباحثين – انطلاقا ممّا سبق – من يؤكّد على أنّ (المحبّ العذريّ رجل ضعيف الشّخصيّة، لأنّه في الحقيقة رجل ناقص الرّجولة. إنّ الحنين الشّعريّ في هؤلاء العذريّين، يجب أن يكون تعويضا نفسانيّا لهم عما فقدوه من قدرة الشّعراء المغامرين على التّمتّع بالحياة الطّبيعيّة تمتّعا تامّا كاملا)[31].

الواقع أنّ في هذا الرّأي كثيرا من الصّحة، ومهما صدق الحبّ المتبادل بين الشّاعر العذريّ وحبيبته، فإنّ هذه القصص – وهذا ما تؤكّده كلّ الرّوايات – لتؤكّد انقلاب الأدوار بين الشّاعر والحبيبة، الشّاعر يذوب حبّا، وينتهي به الأمر إلى الجنون والموت، والمرأة قد تتزوّج غيره، وتنعم بالحياة وبالزّوج غير عابئة به، وصورة لرجل كهذا، قد تزيّن الحديث لأهل السّمر، وتساهم في إبداع قصص ممتعة للرّواة، ولكنّها تضع (الرّجل) في موضع يحطّ كثيرا من قدره. ولكنْ، إلى أيّ مدى كان الحبّ العذريّ عفيفا؟

الحبّ العذريّ (حبّ روحيّ عفيف طاهر لا سلطان لشهوات الجسد أو نوازع الغريزة عليه، تسيطر عليه عاطفة تتسامى على الغرائز والشّهوات ولا تجعل لها سبيلا إليها)[32]؛ هو حبّ إذن

---

[29] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 44.

[30] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 53.

[31] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص: 368.

[32] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 43.

يتجاوز في سموّه ومثاليّته ما تعارف عليه أغلب النّاس. حبّ يقترب فيه المحبّ من الملائكة في روحانيّتهم وطهرهم، ويتجرّد من جسده، باعتبار أنّ الجسد هو موطن الكبائر، والجوارح التي تقود إليها، وحين ذاك يتحوّل إلى كائن آخر غير الإنسان. هو حبّ (يصلى المحب بناره، ويستقر في أحشائه، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه، أو الانصراف عنه)[33]، وكأنّه قدر محتوم، عليه أن يخضع لحكمه. المحبّ هنا لم يختر حبّه ولا حبيبه، ولذلك فلا يمكنه إلاّ أن يتحمّل تبعاته حتّى الموت، بل (نرى د. غنيمي هلال ينسب هؤلاء المحبين إلى الروحانية والبعد عن المتع الجسدية، وإلى الزهد، وإلى جعل الجهاد في الحب قرين الجهاد في سبيل الدين، وإلى العفة التي ضرب لها مثلا بعفة المؤمن في قصة يوسف وزوليخا في القرآن الكريم، ومسلك العذريين عنده يقارن بمسلك الزهاد الأتقياء، إذ أنهم وجدوا طريقا فيه بين زهدهم ومطالب عفتهم، وأطاعوا في حبهم العف قلوبهم ودينهم، ورآهم يبررون حبهم بالقضاء والقدر، فيذعنون له باعتباره من قضاء الله الذي يرجى عليه الثواب)[34]، وبهذا انتقل هؤلاء المحبون إلى مرتبة الأتقياء والمجاهدين والصّالحين والزّهّاد، وما صاموا الدّهر ولا قاموا اللّيل، بل هم صنيعة الفراغ والنّعمة الزّائدة واللّهو الذي هيّأ ظروفه الأمويّون. إنّهم أشخاص يمثّل حبّهم قمّة ممارسة المتعة واللّهو والاختلاط، ثمّ إنّ هؤلاء المحبّين من صفوة القوم؛ (تظهر الروايات قيس بن الملوح فتى ثريا يلبس الطيلسان، بل يلبس حلل الملوك، ويركب ناقة كريمة، يعقرها لبعض الفتيات اللائي التقى بليلى وهي في صحبتهن، ولم تشر الروايات إلى أن جميلا أو كثيرا أو غيرهما من شعراء الحب المأساوي كالمرقش والصمة كانوا يعانون الفقر أو شظف العيش)[35]، ومع توفّر كلّ أسباب المتعة: الغنى والشّباب والاختلاط... نتعجّب كيف يتجاهل هؤلاء الجسد ويتوجّهون إلى الرّوح حتّى الجنون والموت!!!

ولكنْ، ومع كلّ ما تقدّم، (فنحن نقرأ أشعار هؤلاء المحبين، فلا نرى إلا دموعا وآهات تعبر عن رغبة عارمة من أجل اللقاء مع المحبوبة، وهي رغبة عارمة لا للمزايا المعنوية والروحية التي تتمتع بها المحبوبة، وإنما لمزايا جسدية يعلن عنها إمامهم بحق قيس بن الملوح، فهو يصف جسم ليلى، وقد زها في الثياب كما زها الغصن النضير، وقد تزايد نورها، فأشعل هذا في دمه نار الحب إشعالا، يقول:

زهـــا جســـمُ ليلـــى فـــي الثيـــاب كمـــا زهـــا ... مـــع الغصـــن غـــضّ قـــد تزايـــد نورُهـــا

ومـــا بـــال ليلـــى لـــيس تخلـــص مـــن دمـــي ... وتعلـــــم أن النـــــارَ حـــــامٍ ســـــعيرُها

[33] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 39.

[34] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 40.

[35] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 37.

فهل نرى في هذا إلا رغبة عارمة، يؤججها هذا الجسم الفاتن للمحبوبة؟ أهناك أكثر من ذلك تصريحا بالحب المادي؟)[36]، وكلمات مثل: زها، جسم ليلى، النّار، حام سعيرها... لا تصف إلاّ الجسد، ثمّ إنّه وصف مقترن بالرّغبة الجامحة، حيث يصبح الجسد بإغراءاته هو الهدف، وتصبح المثالية التي ارتبطت بهذا الحبّ مجرّد كلام أبدعه الرّواة. (هل هناك أدل من ذلك على الشهوة العارمة التي كانت تحرك هؤلاء المحبين، وعلى رأسهم قيس بن الملوح؟ وهل تأملوا في المرأة جمال روحها، وسمو نفسها، ورقة قلبها، وعذوبة حديثها؟ إني لا أرى إلاّ ذكرا للجسد ومحاسنه، وها هو قيس ليلى يقارن بينها وبين الغزالة، فيقول:

فعينـــاكِ عيناهـــا، وجيـــدُكِ جيـــدُها، ولكـــنّ عظـــم السّـــاق منـــكِ دقيـــقُ)[37]

الجانب المادّيّ في هذا الحبّ ظاهر في النّصوص، وكلّ حكم على هذا الحبّ إنّما ينطلق من النّصوص وليس من خارجها، وهذا يعني أنّ هؤلاء الشّعراء بشر، ومهما كان حبّهم روحيّا فمآله هو الجسد، وحتّى قصصهم الجميلة كما ذكرها الرّواة، فإنّها تقدّمهم مجانين لا يعقلون، ولكنّ ذكر محبوباتهم يعيدهم إلى واقعهم، لأنّهم يحلمون بالوصال، ولا حبّ إلاّ وغايته الوصال، ولذلك، فالحبّ العذريّ حبّ بشريّ، لا (يلغي الجسد إلغاء تامّا، فإنّ هذا لا يتّفق مع طبيعة الحياة ولا يستقيم مع واقع الصّلة بين العواطف والغرائز في الطّبيعة البشريّة [...] حبّ الجسد دافع من دوافع هذا الحبّ، كما أنّه هدف من أهدافه، لأنّه بدون هذا الدّافع، ومن غير هذا الهدف، لا يمكن لعاطفة حبّ بين رجل وامرأة أن تقوم)[38]، ثمّ إنّ الشّعراء العذريّين (كانت تنازعهم أنفسهم إلى كل ما كانت تصبو إليه نفوس غيرهم، ثم إذا هم وجدوا فرصة سلكوا مسلك الناس جميعا في هذا الجانب من الحياة)[39].

الشّعر العذريّ هو شعر موضوعه المرأة، ولعلّ أهمّ ما يميّزه عن غيره هو أنّ قائله لا يحوم حول المرأة أينما وجدها. خصوصيّته أنّ امرأة واحدة تأسر الشّاعر، فتملك شعره وقلبه وحياته حتّى يقضي عليه حبّها في قصّة مأساويّة. المرأة الواحدة في هذا الحبّ هي التي سمحت بتشكّل الأحداث المحزنة لهذه القصّة، وامتدادها في الزّمان، بخلاف الحبّ الماجن الذي لا يمثّل سوى مغامرات لا حصر لها في حياة الشّاعر، وهي مغامرات، بقدر تيسّر حدوثها، فإنّها لا تستمرّ، لأنّ الحبيبات فيها متعدّدات، ويغبن عن الأحداث بانتهاء المغامرة، ولذا نشير إلى (أنّ الذي ظلّ يفصل بين الشّعراء الذين نسمّيهم عذريّين، وبين سواهم من الشّعراء المحبّين، أنّ هولاء العذريّين لم يبلوا بامرأة غير تلك التي توهّموا حبّها. وقد تبدي المرأة التي يتتبّعها المحبّ العذريّ صدّا أو كرها

---

[36] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 40.

[37] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 41.

[38] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 43.

[39] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981، ص: 367.

لذلك المحبّ الشّاذّ، وقد تتزوّج تلك المرأة وتربط سعادتها ومصيرها برجل آخر، ولكنّ محبّها يظلّ على وهمه الأوّل ينظم فيها الأشعار)[40].

وممّا يُروى عن بني عذرة الذين نُسب إليهم هذا الحبّ، (أنّ سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة: ممّن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا. ويروى أيضا، أنّ سائلا سأل عروة بن حزام العذريّ صاحب عفراء: أصحيح ما يُروى عنكم من أنّكم أرقّ النّاس قلوبا؟ فأجابه: نعم، والله لقد تركت ثلاثين شابّا قد خامرهم الموت، وما لهم داء إلاّ الحبّ)[41]، و(قديما قال رجل منهم: "لقد تركت بالحيّ ثلاثين قد خامرهم السّلّ وما بهم داء إلاّ الحبّ"، وسئل آخر: "ممّن أنت؟" فقال: "من قوم إذا أحبّوا ماتوا"، فقالت جارية سمعته: "عذريّ وربّ الكعبة")[42]، ولكنّ الأمر الغريب بعد هذا، أنّ قصص هؤلاء المحبّين الذين يقتلهم الحبّ، قد فتحت الباب أمام الدّارسين، ليستنتجوا منها ما لا يمتّ إلى العفّة المقترنة بالبراءة بصلة. فحين تتزوّج الحبيبة، لا يرضى المحبّ العفيف العذريّ بهذا الفعل القاتل، فيعمد إلى زيارتها – فيما يشبه الانتقام من الزّوج الذي سرقها منه – ليلا، ويقضي معها اللّيل يتطارحان الغرام، ثمّ إنّ هذه الحبيبة المتزوّجة، تستقبل حبيبها في بيت زوجها، ولا تخشى في ذلك شيئا، ممّا يجرّدها من أجمل صفات المرأة الزّوجة، وهي صفة الوفاء للزّوج. يقول صادق جلال العظم: (يبدو إذن أنّ الحبّ العذريّ ضدّ مؤسّسة الزّواج وما تعنيه، وهو يبقى على نفسه بالرّغم عنها، وبتحدّيها تحدّيا مباشرا مستمرّا. ومع أنّ الحبر سال في الكلام عن عفّة هذا الحبّ وطهارته ومثاليّته، كان العاشق العذريّ يزور عشيقته المتزوّجة في عقر دارها، ويقضي اللّيالي مختبئا عندها، بالرّغم من أنف زوجها وأهلها. ومن طرائف قصص هذا الحبّ أنّ الزّوج كان يخرج دوما وكأنّه الشّخصيّة الشّريرة في القصّة وتتمّ الأحداث دوما على حساب شخصيّته وكرامته. فهو دميم أو أعور أو فظّ قاسي القلب، يقف حائلا بين لقاء العاشقين. وحين نقرأ قصص الحبّ العذريّ لا نشعر بالعطف على الزّوج المخدوع الذي لا ذنب له في الحقيقة سوى التّقيّد بأعراف مجتمع البادية وعاداته)[43]، كما أنّ الادّعاء بأنّ الحبّ العذريّ حبٌّ هذّبه الإسلام، ادّعاء تكذّبه قصص العذريّين، إلاّ إذا اعتبرنا حقّا أنّ هذه القصص هي مجرّد قصص خياليّة، من إبداع المخيّلة الشّعبيّة، التي كانت تحتاج في لياليها البدويّة الطّويلة إلى كثير من خيال الرّواة، لتحلو مجالس سمرهم.

(القصّة) في الحبّ العذريّ:

[40] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981، ص: 367.

[41] - شوقي ضيف: العصر الإسلامي، دار المعارف، ط 7، مصر، ص: 359.

[42] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 16.

[43] - صادق جلال العظم: في الحبّ والحبّ العذريّ، دار المدى للثّقافة والنّشر، ط 1، سوريا، 1968، ص: 70.

قصّةُ الحبّ العذريّ عامّةً قصّةٌ مأساويّةٌ بحقّ، أبطالها شعراء أحبّوا فَرَقُّوا حتّى ماتوا، وارتبطت مأساتهم بامرأة (توهّموا حبّها. وقد تبدي المرأة التي يتتبّعها المحبّ العذريّ صدّا أو كرها لذلك المحبّ الشّاذّ، وقد تتزوّج تلك المرأة وتربط سعادتها ومصيرها برجل آخر، ولكنّ محبّها يظلّ على وهمه الأوّل ينظم فيها الأشعار)[44]، وكلّما تقدّم أحدهم لخطبة المرأة التي أحبّ لم يجد سوى الرّفض من أهلها، بدعوى أنّ (العرب لا يزوّجون امرأة ممّن اشتهر بعشقها)، وكانت النّهاية في كلّ مرّة تقريبا أن يموت المحبّ دون أن ينال شيئا ممّن أحبّ. وربّما كان أجمل ما خلّفته لنا هذه القصص المأساويّة ذلك الشّعر العذب والممتع، الذي ينقلنا برقّته إلى عالم المثل والرّوح والقيم، بعيدا عن الواقع.

يمكن القول إنّ هذا التّشابه في قصص العذريّين قد أنتج "القصّة العذريّة"، باعتبار تشابه الأحداث الكبرى فيها، ممّا شكّل في نهاية المطاف "القصّة الإطار"، التي تصلح لبناء قصص لا حصر لها، بناء على تلك الأحداث المشتركة، التي لا يتغيّر فيها سوى "الشّخصيّات أو الأبطال". ربّما يعود الأمر إلى سببين:

أوّلهما أنّ شعراء الحبّ العذريّ المشهورين قد عاشوا في فترة زمنيّة متقاربة جدّا؛ (فنحن نلتقي بسبعة شعراء من أصحاب الحب المأساوي في مدى زمني يبلغ نصف قرن تقريبا، إذ توفي أولهم وهو قيس لبنى سنة 68هـ، وتوفي في نفس العام أو بعده بعامين قيس ليلى، بينما توفي آخرهم وهو كثير عزة في 105هـ، وبهذا يبلغ المدى الزمني بين وفاة أولهم وآخرهم سبعا وثلاثين عاما، ومعنى ذلك أن الامتداد الزمني للظاهرة كلها يمكن أن يتجاوز بقليل نصف قرن من الزمان، أي بمعدل شاعر في كل عقد ونصف من الزمان)[45]، فعاشوا تعاسة واحدة، في ظروف بيئيّة واجتماعيّة واحدة.

ثانيهما أنّ الرّواة، وحتّى يؤكّدوا البعد المأساويّ للحبّ العذريّ، فقد تعمّدوا هذا التّشابه في أحداث ما رووه من قصص هؤلاء، وربّما ليؤكّدوا أيضا – وهذا هو المغزى – أنّ الحبّ العذريّ لا يعدو أن يكون مأساة لا تورّث صاحبها إلاّ الأسى والتّعاسة والموت جنونا، وفي مقابل هذا الحبّ، يوجد حبٌّ (ماجنٌ) منح أصحابه كلّ أسباب المتعة.

يقول يوسف خلّيف عن قصّة عروة وعفراء، بعدما استعرض أحداثها: (هذه هي أقدم قصّة وصلت إلينا من قصص الحبّ العذريّ في العصر الأمويّ، وهي تمثّل – بحق – المعالم الأساسيّة، والملامح المميّزة، لكلّ القصص العذريّ)[46]. نظرا لقدم هذه القصّة، فإنّها أصبحت تمثّل كلّ القصص العذريّ، والغرابة كلّ الغرابة أن نجد هذا التّشابه وكأنّنا أمام قصّة واحدة،

---

[44] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981، ص: 367.

[45] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 11، 12.

[46] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 25، 26.

والأهمّ في ذلك كلّه – وهذا ما يؤكّد هذا التّشابه، ويؤكّد أهمّيته – حين كان (الشعر العقدة الرئيسية في هذه القصص، فالمحبون المتيمون كلهم شعراء، ومن أجل هذا فهم يعبرون عن حبهم شعرا، ولهذا يشتهر هذا الحب ويذيع، وهذا الاشتهار يتعارض مع تقليد يقضي بمنع من يشتهر بحب فتاة من الزواج بها في هذه البيئة)[47]، فلماذا استمرّ هؤلاء الشّعراء المحبّون في التّشهير بحبيباتهم، وهم يعلمون أنّ ذلك سيحرمهم ممّن أحبوا؟ ألأنّ الشّعر أهمّ عندهم منهنّ؟ أم أنّ الحبّ لا يسمو إلاّ بالشّعر؟ أم أنّ الشّعر والحبّ حينما اجتمعا لم يعد الشّاعر يفكّر إلاّ في الشّهرة وعطف النّاس، فضحّى بالحبيبة واستمرّ في الشّعر؟

الشّاعر يعلم – وقصص هؤلاء متشابهة – أنّه سيُمنع من الحبيبة، (وهذا يزيد حب الشاعر في العادة التهابا، ويزيده إصرارا على هذا الحب، فيلجأ أهل المحبوبة إلى السلطان الذي يهدر لهم دمه إذا تعرّض لفتاتهم. الشعر إذن هو العقدة الرئيسية، والمحرّك الأول لأحداث هذه القصص المتشابهة في جوهرها)[48]، ويؤكّد يوسف خلّيف أنّ الحبّ هو المحرّك للأحداث، ويبدو أنّه هو الغاية أيضا، وكأنّ الشّاعر العذريّ، وحتّى يستمرّ شعريّا وينال حظوة عظيمة عند الجمهور، عليه أن يحبّ، ويوفّر كلّ ما يمنع الوصال.

ومن الباحثين من يؤكّد صحّة أحداث[49] هذه القصص، باعتبارها أحداثا عرفها التّاريخ، وعرف أصحابها، وإذا كان للرّواة دخل فيها، فإنّ ذلك لم يتجاوز (العبث والتّزيّد والخيال في التّفاصيل والحواشي)[50]، وهو ما أضفى على هذه القصص بعدا أسطوريّا خارقا، انتهت قصّة عروة وعفراء بكلّ مأساويّتها بالموت، مثلما انتهت كلّ قصص الشّعراء العذريّين، ولكنْ، (يأبى خيال القُصّاص إلاّ أن يجمع بينهما بعد الموت، فقد دُفنت عفراء إلى جانب قبر عروة، ومن

---

[47] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 23، 24.

[48] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 23، 24.

[49] (يقول الأصمعيّ: "رجلان ما عُرفا في الدّنيا قطّ إلاّ بالاسم: مجنون بني عامر وابن القِرِّيَّة، وإنّما وصفهما الرّواة"، ويقول ابن الكلبيّ: "حُدِّثتُ أنّ حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أميّة كان يهوى ابنة عمّ له، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها، فوضع حديث المجنون، وقال الأشعار التي يرويها النّاس له، ونسبها إليه")، شوقي ضيف: العصر الإسلاميّ، ص: 360. بل ويؤكّد شوقي ضيف شكوكه حول كثير من هذه القصص، وحول أبطالها وناظميها: (وُجد هذا الغزل العذريّ في العصر الأمويّ بنجد وبوادي الحجاز، وكثُر أصحابه وكثرت أشعاره، حتّى غدت لونا شعبيّا عامّا، ولعلّ شعبيّتها هي التي أكثرت من القصص حولها، كما أبهمت بعض من نظموها، وقد اختار الرّواة أشخاصا، جعلوا منهم أبطالا، ونسبوا إليهم كثيرا من تلك الأشعار) شوقي ضيف: العصر الإسلاميّ، ص: 361. ولكنّ (المتأمّل لتراجم "الأغاني" لشعراء العذريّة يلاحظ اعتماده على الرّواية في الأخبار، تلك الرّواية المبنيّة على أساسين: "الإسناد والمتن"). محمد بلوحي: الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص: 13، 14.

[50] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 09.

القبرين نبتت شجرتان غريبتان لم ير النّاس مثلهما من قبل، تظلاّن تنموان حتّى تلتفّ إحداهما على الأخرى، تحقيقا لأمل قديم حالت الحياة دون تحقيقه، وأبى الموت إلاّ أنْ يحقّقه)[51].

الحبّ العذريّ وعلاقته بالتّرف والثّراء والغناء:

قد يظنّ القارئ أنّ حياة التّرف والثّراء قد أنتجت ما يُعرف بالغزل المادّي أو الماجن، لما للثّراء والتّرف الزّائد من قدرة على توجيه المرء إلى المادّيّات في الحياة، باعتبار أنّه يملك ما من شأنه أن يحقّق له كلّ شيء، بخلاف الفقر وشظف العيش، وصعوبة المعيشة التي توجّه المرء إلى تعويض معاناته بالتّوجّه نحو الرّوحيّات.ممّا أوجد الشّعر العذريّ، ولكنْ، يبدو أنّ الواقع شيء مغاير تماما؛ (تظهر الروايات قيس بن الملوح فتى ثريا يلبس الطيلسان، بل يلبس حلل الملوك، ويركب ناقة كريمة، يعقرها لبعض الفتيات اللائي التقى بليلى وهي في صحبتهن، ولم تشر الروايات إلى أن جميلا أو كثيرا أو غيرهما من شعراء الحب المأساوي كالمرقش والصمة كانوا يعانون الفقر أو شظف العيش)[52]، وهنا بالتّحديد، نتذكّر الموقف نفسه، عاشه امرؤ القيس، وأورد وصفا له في معلّقته الشّهيرة:

وَيَـــــوْمَ عَقَـــــرْتُ لِلْعَـــــذَارَى مَطِيَّتِـــــي فَيَـــــا عَجَبـــــاً مِـــــنْ كُوْرِهَـــــا المُتَحَمَّـــــلِ

فَظَـــــلَّ العَـــــذَارَى يَـــــرْتَمِيْنَ بِلَحْمِهَـــــا وشَـــــحْمٍ كَهُـــــدَّابِ الـــــدِّمَقْسِ المُفَتَّـــــلِ

وإذا كان امرؤ القيس ملكا ابن ملك، أمضى حياته كلّها في الشّرب ومخالطة النّساء، فقيس بن الملوّح هنا، لا يختلف عنه في شيء؛ كان (فتى ثريا يلبس الطيلسان، بل يلبس حلل الملوك، ويركب ناقة كريمة)، ويسلك سلوكه نفسه (يركب ناقة كريمة، يعقرها لبعض الفتيات اللائي التقى بليلى وهي في صحبتهن)، وبذلك فإنّ الأمر كما يبدو، لا يعدو أن يكون ظاهرة مسّت الأثرياء، فتوجّه بعضهم إلى الشّعر المادّيّ وبعضهم إلى الشّعر العذريّ. القضيّة في نهاية المطاف متعلّقة بالمرأة، وحين تكون المرأة موضوعا شعريّا شائعا فذلك دليل على مستوى التّرف والرّفاهيّة الشّائع بين النّاس. إنّ (مجنون ليلى والعرجيّ والحارث المخزوميّ وأبو دهبل الجمحيّ وابن قيس الرّقيّات وكثيّر عزّة وقيس بن ذريح والمخبّل القيسيّ وابن ميّادة وذو الرّمّة والأحوص ويزيد بن الطّثريّة وحميد بن ثور وغيرهم كثير ممّن خلقوا أدبا ثالثا بالحجاز نظير الأدب الموالي بالشّام والمعارض بالعراق هو الأدب اللاّهي أو الباكي. وقد استتبع وجودُه نشوء الغناء بالحجاز لما بين الغناء وهذا النّوع الشّعريّ من تمام الصّلة وشدّة العلاقة ولحاجة المعيشة المترفة إليهما، حاجة تكمل أسباب لذاذاتها وتحوطها بالنّعيم من جميع جهاتها)[53]، وانطلاقا من هذا الرّأي،

---

[51] - يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ص: 25.

[52] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 37.

[53] - السّباعي السّباعي بيّومي: تاريخ الأدب العربيّ في صدر الإسلام والعصر الأمويّ، الجزء الثّاني، ص: 308.

فالغزل المادّيّ أو العذريّ، هو أدب ثالث، بعد (الأدب الموالي بالشّام والمعارض بالعراق)، وقد سمّاه الباحث هنا (الأدب اللاّهي أو الباكي)، وهو وليد الغناء والتّرف والنّعيم في الحجاز.

الواقع أنّ الشعر والغناء متلازمان، فالألحان والموسيقى تشكّلان الغناء بالكلمات الشّعريّة الجميلة، وهذه لن تكون جميلة بعيدا عن الحبّ والمرأة والمغامرات العاطفيّة... ولشيوع الغناء وانتشاره مجموعة من الأسباب، فإذا ذكرنا (الغناء فاعلم أنّه يحدث في العمران إذا توافر، وتجاوز حدّ الضّروريّ إلى الحاجيّ، ثمّ إلى الكماليّ، وتفنّنوا فيه. فتحدث هذه الصّناعة، لأنّه لا يستدعيها إلاّ من فرغ من جميع حاجاته الضّروريّة والمهمّة من المعاش والمنزل وغيره، فلا يطلبها إلاّ الفارغون عن سائر أحوالهم تفنّنا في مذاهب الملذوذات)[54]، ولا يعقل أبدا أن يشيع الغناء أثناء الحروب والمجاعات والأوبئة. لقد توفّرت أسباب موضوعيّة لشعراء الغزل جعلتهم غزلين، مثلما توفّرت أسباب أخرى لأهل الشّام والعراق، فحدّدت لهم توجهاتهم الشّعريّة، ولذا، فـ(لا أرى في كل حياة هؤلاء المحبين والغزلين في هذه الفترة من القرن الأول الهجري، إلا فراغا وبطالة وإنفاقا للطاقة البشرية في هذا المسرب الواحد من مسرب المرأة، والانشغال بحبها ليل نهار عن كل عمل جاد، وكل هدف هام وشريف آخر في الحياة، بحيث لا أرى نسبة هذا اللون إلى الإسلام، وجعله أثرا من آثاره؛ فالإسلام في حد ذاته لم يحدث هذا التحول المرضي في الشخصية، وإنما أحدثه الفراغ الناشئ عن خيرات الفتوح، وإذا كانت البصرة ومكة والمدينة قد نالتا الكثير من هذه الخيرات والأموال)[55].

الغناء ملمح حضاريّ، والاستقرار السّياسيّ يؤدّي دائما إلى استقرار المجتمع، ويهيّئ الظّروف للانطلاق نحو حياة الرّفاه، التي لا يبحث فيها الفرد عن متطلّبات الحياة اليوميّة، بل يصبح هاجسه فيها البحث عن الكماليّات، والتّمتّع بالملذّات، وإذا كان (الشّعر العربيّ أصلح أنواع الشّعر للغناء، وكأنْ لم يخلق إلاّ له في نفوس الأعراب، فقد عاد عليه رواج الغناء بالرّقيّ الباهر والتّقدّم غير المسبوق بنظير، إذ شاع استماع العامّة له في الغناء، وكان قبل يكاد يكون وقفا على الخاصّة وذوي الأقدار، فكان هذا أذيع له وأشدّ تعريفا بصاحبه في بيوت العظماء وقصور الخلفاء، ومن هنا اتّخذه الشّعراء سلّما للشّهرة فخادنوا المغنّين وصافوهم، وكثيرا ما كان يتقاسم شاعر ومغنٍّ ما يصيب كلاهما من جوائز وصلات)[56]، فبإمكاننا أن نتصوّر حياة الرّخاء الاجتماعيّ التي بلغها المجتمع الأمويّ، وخاصّة أنّ ذلك كان أمرا مقصودا سيّاسيّا، لإلهاء النّاس عن المطالبة بالحكم؛ (وفي كتاب "الأغانيّ" للأصفهانيّ خير تصوير لحياة الطّرب واللّهو والنّعيم في هاتين المدينتين [مكّة والمدينة]. وكان من الطّبيعيّ أن ينشأ عن ذلك شعر الغزل اللاّهيّ، الذي لبّى

---

[54] - حسن أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة مصر، ط 1، القاهرة، 1947، ص: 56.

[55] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 36.

[56] - السّباعي السّباعي بيّومي: تاريخ الأدب العربيّ في صدر الإسلام والعصر الأمويّ، الجزء الثّاني، ص: 311.

حاجات المغنّين والمغنّيات، وملأ فراغ أهل المدينتين المترفتين)[57]. كان الأمر لا يستقيم دينيّا، إذا قسناه بالنّظام السّياسيّ القائم على (الخلافة)، وخاصّة أن حركة الفتوح في هذه المرحلة التّاريخيّة كانت قد بلغت أوجَهَا، ولكنْ، أثناء ذلك أصبحت مكّة والمدينة، رمزَا الإسلامِ وموطنَا نزولِ القرآنِ، تحملان مدلولاتٍ أخرى أوجدتها السّياسة؛ فكان (ممّا ساعد على هذا التّقدّم السّريع ما كان من شديد المنافسة بين مكّة والمدينة وتسابقهما في التّفوّق وتعليم القيان اللاّتي ملأتهما من سبي الفرس والرّوم، وفيهما من بنات الملوك والأشراف من اتّسمن بميسم الحسن وتجمّلن بآثار الحضارة والنّعيم، فكنّ خير معينات على هذا النّبوغ، وأخذت المدينتان تزخران بالمغنّيات وتبعثان بأفواجهنّ إلى قصور الخلفاء والأمراء، وإن معاوية وإنْ يك قد تحشّم دون الاعتداد بالغناء فقد ترك النّاس يلهون به ويستمتعون ومعهم ابنه يزيد ذو الشّغف به والاستماع للقيان)[58]، وبذلك أصبحت مكّة والمدينة، تنتجان اللّهو وتصدّران المغنّيات، بعدما كانتا موطنا للمهاجرين والأنصار، تصدّران الدّين الجديد إلى كلّ بقاع الأرض.

يمثّل العصر الأمويّ دليلا تاريخيّا قاطعا على تحكّم السّياسة في الشّعر، وقدرتها الفائقة على تشكيله الشّكل الذي تريد، بما يحقّق لها وجودها واستمرارها. لقد كان الشّعر الموالي للنّظام السّياسيّ في الشّام، والآخر المعارض له في العراق، ثمّ شعر الغزل في الحجاز من صنيع الأمويّين الذين وفّروا له كلّ الظّروف، ولذلك لا يمكن أن ندرس الشّعر الأمويّ كلّه، حتّى شعر الغزل بنمطيْهِ، دون ربطه بالسّياسة لفهم طبيعته وتطوّره وتعبيره عن الواقع، وإذا فعلنا ذلك، فالنّتيجة التي نبلغها هي أنّه قد (تغزّل الشّعراء في الجواري وفاض شعر الغزل بوصفهنّ، وأخبارهنّ، وها نحن أولاء نقرأ من هذا في الشّعر العربيّ صورا جميلة رائعة، فيها قوّة، وفيها حين، وفيها إتقان، فنحمد لهؤلاء الجواري ما أسدين إلى الأدب من ثروة ومن زاد. وكان من الحقّ أن نعتبر هؤلاء الجواري وكثرتهنّ، وانتشار نفوذهنّ، على الصّورة التي نراها سببا من أسباب الغزل، وعاملا من عوامله)[59].

نماذج شعريّة:

يقول عروة بن حزام:

يقـــول لـــيَ الأصـــحابُ إذْ يَعـــذلونني ... أَشَـــوْقٌ عراقِـــيٌّ وأنـــتَ يمـــانِ

ولـــيس يمـــانٍ للعراقـــيّ بصـــاحبٍ ... عســـى فـــي صـــروف الـــدّهر يلتقيـــانِ

تحمّلـــتُ مـــن عفـــراءَ مـــا لـــيس لـــي بـــه ... ولا للجبـــالِ الرّاســـياتِ يـــدانِ

كـــأنَّ قطـــاةً عُلِّقَـــتْ بجناحهـــا ... علـــى كبـــدي، مـــن شـــدّة الخفقـــانِ

---

[57] - صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، ص: 25.

[58] - السّباعي السّباعي بيّومي: تاريخ الأدب العربيّ في صدر الإسلام والعصر الأمويّ، الجزء الثّاني، ص: 310.

[59] - حسن أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة مصر، ط 1، القاهرة، 1947، ص: 47.

جعلـــتُ لعـــرّاف اليمامـــةِ حُكمَـــهُ ... وعـــرّافِ حَجْـــرٍ إنْ همـــا شَـــفَيَاني

فقـــالا: نعـــم، نَشـــفي مـــن الـــدّاءِ كُلِّـــهِ ... وقامـــا مـــع العُـــوّادِ يبتـــدرانِ

نعـــم، وبلـــى، قـــالا: متـــى كنـــتَ هكـــذا ... لِيَسْـــتَخْبراني، قلـــتُ: منـــذ زمـــانِ

فمـــا تركـــا مـــن رُقيـــةٍ يعلمانهـــا ... ولا شُـــرْبةٍ، إلاّ وقـــد ســـقياني

فقـــالا: شـــفاكَ الله، والله مـــا لنـــا ... بمـــا ضُـــمِّنَتْ منـــك الضّـــلوعُ يـــدانِ

ألا أيُّهـــل العـــرّافُ هـــل أنـــتَ بـــائعي ... مكانَـــكَ يومًـــا واحـــدًا بمكـــاني؟

فيـــا عـــمُّ، يـــا ذا الغـــدرِ، لا زلـــتَ مُبْتَلـــى ... حليفـــا لهـــمٍّ لازمٍ وهـــوانِ

غـــدرتَ وكـــان الغـــدرُ منـــك ســـجيّةً ... فألْزمـــتَ قلبـــي دائـــمَ الخفقـــانِ

وأورَثْتَنـــي غمًّـــا وكربًـــا وحســـرةً ... وأوْرثـــتَ عينـــي دائـــمَ الهَمَـــلانِ

فـــلا زلـــتَ ذا شـــوقٍ إلـــى مـــنْ هَوَيْتَـــهُ ... وقلبُـــكَ مقســـومٌ بكـــلّ مكـــانِ

وإنّـــي لَأَهـــوى الحشـــرَ إذْ قيـــلَ إنَّنِـــي ... وعفـــراءَ يـــومَ الحشـــرِ ملتقيـــانِ[60]

بقي جميل ملازما حب بثينة، حتى كبر وشاب وصبغ شعره بالحناء، وذكر ذلك في قوله:

تقـــول بثينـــةُ لمـــا رأت ... فنونـــا مـــن الشَّـــعَرِ الأحمـــر

كبـــرتَ جميـــلُ، وأودى الشـــبابُ ... فقلـــتُ: بثـــينَ، ألا أقصـــري

أتنســـين أيامنـــا بـــاللوى ... وأيامنـــا بـــذوي الأجفُـــر

وإذ أنـــا أغيـــدُ، غـــضّ الشـــباب ... أجـــرّ الـــرداء مـــع المئـــزر

قريبـــان، مربعنـــا واحـــد ... فكيـــف كبـــرتُ؟ ولـــم تكبـــري؟؟

وحين نُعي جميل من مصر إلى بثينة، بكت ومعها جمع من النساء، ثم قالت:

وإنّ سُـــلوّي عـــن جميـــلٍ لَسَـــاعةٌ ... مـــن الـــدّهر مـــا حانـــتْ، ولا حـــان حينُهـــا

ســـواءٌ علينـــا يـــا جميـــلَ بـــنَ معمـــرٍ ... إذا مـــتَّ، بأســـاءُ الحيـــاة ولينُهـــا

قال مجنون ليلى:

تعلّقـــتُ ليلـــى، وهـــي غِـــرٌّ صـــغيرةٌ ... ولـــم يبـــدُ للأتـــرابِ مـــن ثـــديها حجـــمُ

صـــغيرَيْنِ نرعـــى الـــبَهْمَ، يـــا ليـــت أنّنـــا ... إلـــى اليـــومِ لـــم نكبُـــرْ، ولـــم تكبـــر الـــبَهْمُ[61]

فأجابته وهي باكية، لمّا سمعتْ شعرَه:

وكُـــلٌّ مُظهـــرٌ للنّـــاسِ بُغْضًـــا ... وكُـــلٌّ عنـــد صـــاحبه مكـــينُ

تُخبّرنـــا العيـــونُ بمـــا أردنـــا ... وفـــي القلبـــيْنِ، ثَـــمَّ هـــوى دفـــينُ[62]

---

[60] - ديوان عروة بن حزام، جمع وتحقيق وشرح أنطوان محسن القوال، دار الجيل، ط 1، بيروت، 1995، ص: 39، 40، 41.

[61] - ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق يسري عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1999، ص: 28.

[62] - ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، ص: 29.

وقال:

يقولـــون ليلـــى بـــالعراق مريضـــة ... فيـــا ليتنـــي كنـــت الطبيـــب المـــداويا
فشـــاب بنـــو ليلـــى وشـــاب ابـــن بنتهـــا ... وحُرقـــة ليلـــى فـــي الفـــؤاد كمـــا هيـــا
علـــيَّ لـــئن لاقيـــتُ ليلـــى بخلـــوةٍ ... زيـــارةُ بيـــت الله رجـــلاي حافيـــا
فيـــا ربِّ قـــدْ صـــيّرتَ ليلـــى هـــي المنـــا ... فزنّـــي بعينهـــا كمـــا زنتَهـــا ليـــا
وإلاّ فبغِّضـــــها إلـــــيّ وأهلَهـــــا ... فـــإنّي بليلـــى قـــد لقيـــتُ الـــدواهيا
يلومـــون قيســـا بعـــدما شـــفّه الهـــوى ... وبـــات يراعـــي الـــنجمَ حيـــرانَ باكيـــا
فيـــا عجبـــا ممّـــن يلـــوم علـــى الهـــوى ... فتـــى دنفـــا، أمســـى مـــن الصّـــبر عاريـــا
ينـــادي الـــذي فـــوق السّـــماوات عرشُـــه ... ليكشـــف وجـــدا، بـــين جنبيـــه ثاويـــا
بســـاحرة العينـــين، كالشـــمس وجههـــا ... يضـــيء ســـناها فـــي الـــدّجى متســـاميا[63]

وقال:

ألا لا أرى وادي الميـــــــاه يُثيـــــــبُ ... ولا الـــــنفسَ عـــــن وادي الميـــــاه تطيـــــبُ
أحـــــبُّ هبـــــوط الـــــواديين، وإننـــــي ... لمشـــــــتهرٌ بـــــــالواديين غريـــــــبُ
أحقّـــــا عبـــــاد الله، أنْ لســـــتُ واردا، ... ولا صـــــــادرا، إلاّ علـــــــيّ رقيـــــــبُ
ولا زائـــــرا فـــــردا، ولا فـــــي جماعـــــةٍ ... مـــــن النّـــــاس، إلاّ قيـــــل أنـــــت مريـــــبُ
وهـــــل ريبـــــةٌ فـــــي أنْ تحـــــنَّ نجيبـــــةٌ ... إلـــــى إلفهـــــا، أو أنْ يحـــــنَّ نجيـــــبُ؟
وإنّ الكثيـــبَ الفـــردَ مـــن جانـــب الحمـــى ... إلـــــيَّ، وإنْ آتـــــــه، لحبيـــــــبُ
ولا خيـــر فـــي الـــدنيا، إذا أنـــت لـــم تـــزرْ ... حبيبـــا، ولـــم يطـــربْ إليـــك حبيـــبُ[64]

وقال قيس بن ذريح[65]:

إذا خَـــدِرَتْ رجلـــي، تـــذكرتُ مـــن لهـــا ... فناديـــتُ لبنـــى باســـمها ودعـــوْتُ
دعـــوتُ التـــي لـــو أنَّ نفســـي تطيعنـــي ... لفارقتُهـــا مـــن حبهـــا وقَضَـــيْتُ[66]
بـــرتْ نَبْلَهـــا للصـــيد لبنـــى، وريَّشـــتْ ... وريَّشـــتُ أخـــرى مثلهـــا، وبريْـــتُ[67]
فلمـــا رمتنـــي أقصـــدتْني بســـهمها ... وأخطأتُهـــا بالســـهم حـــين رميْـــتُ
وفارقـــتُ لبنـــى ضَـــلّةً، فكـــأنّني ... قُرِنـــتْ إلـــى العَيُّـــوقِ ثـــمّ هَوَيْـــتُ[68]
فيـــا ليـــت أنّـــي مُـــتُّ قبـــل فراقهـــا ... وهـــلْ تُـــرْجِعَنْ فـــوتَ القضـــية ليْـــتُ[69]

---

[63] - ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، ص: 39.

[64] - ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، ص: 40.

[65] - ديوان قيس بن ذريح قيس لبنى، اعتنى به وشرحه عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط 2، 2004، ص: 61.

[66] - قضيت: متّ.

[67] - برى النَّبل: نحته.

[68] - الضّلّة: ضد الهدى، نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن.

[69] - فوت القضية: ما فات من الأمر.

فصـــرتُ وشـــيخي كالـــذي عثـــرتْ بـــه ... غـــداةَ الـــوغى بـــين العـــداة كُمَيْـــتُ[70]

وقال أيضا:

أعـــالج مـــن نفســـي بقايـــا حُشاشـــةٍ ... علـــى رمـــقٍ، والعائـــداتُ تعـــودُ
فـــإنْ ذُكـــرتْ لبنـــى هششـــتُ لـــذكرها ... كمـــا هـــشّ للثّـــديِ الـــدّرور وليـــدُ[71]
أجيـــبُ بلبنـــى مـــن دعـــاني تجلُّـــدا ... وبـــي زفـــراتٌ تنجلـــي وتعـــودُ[72]
تعيـــدُ إلـــى روحـــي الحيـــاةُ، وإنّنـــي ... بِنَفْســـيَ لـــو عينتَنـــي لأَجـــودُ[73]
ألا ليـــت أيّامـــا مضـــيْنَ تعـــودُ ... فـــإنْ عـــدْنَ يومـــا، إنّنـــي لســـعيدُ[74]
ســـقى دارَ لبنـــى، حيـــث حلّـــتْ وجيّمـــتْ ... مـــن الأرضِ مُنهـــلُ الغمـــامِ رعيـــدُ[75]
علـــى كـــلّ حـــالٍ إنْ دنـــتْ أو تباعـــدتْ ... فـــإنْ تـــدنُ منّـــا، فالـــدّنوُّ مزيـــدُ[76]
فـــلا اليـــأسُ يُســـليني[77]، ولا القـــربُ نـــافعي، ... ولُبنـــى منـــوعٌ، مـــا تكـــاد تَجـــودُ[78]

قال جميل بثينة:

ألا ليـــت ريعـــانَ الشّـــباب جديـــدُ ... ودهـــرا تـــولّى، يـــا بثـــينَ، يعـــودُ
فنبقـــى كمـــا كنّـــا نكـــون، وأنـــتمُ ... قريـــبٌ، وإذْ مـــا تبـــذُلين زهيـــدُ
إذا قلـــتُ: مـــا بـــي يـــا بثينـــةُ قـــاتلي، ... مـــن الحـــبِّ، قالـــتْ: ثابـــتٌ، ويزيـــدُ
وإنْ قلـــتُ: رُدّي بعـــضَ عقلـــي أعـــشْ بـــه ... تولّـــتْ، وقالـــتْ: ذاك منـــك بعيـــدُ
فـــلا أنـــا مـــردودٌ بمـــا جئـــتُ طالبـــا، ... ولا حبُّهـــا فيمـــا يَبِيـــدُ يَبِيـــدُ
يمـــوت الهـــوى منـــي إذا مـــا لقيتُهـــا ... ويحيـــا، إذا فارقتُهـــا، فيعـــودُ
وقلـــتُ لهـــا: بينـــي وبينـــكِ، فـــاعلمي، ... مـــن الله ميثـــاقٌ لـــه وعهـــودُ
وقـــد كـــان حُبِّـــيكم طريفـــا وتالـــدا، ... ومـــا الحـــبُّ إلاّ طـــارفٌ وتليـــدُ[79]
وإنّ عـــروضَ الوصـــلِ بينـــي وبينهـــا، ... وإنْ ســـهَّلَتْهُ بـــالمنى لكـــؤودُ[80]
وأفنيـــتُ عمـــري بانتظـــاريَ وعـــدَها، ... وأبليـــتُ فيهـــا الـــدّهرَ، وهـــو جديـــدُ
يمـــوت الهـــوى منـــي إذا مـــا لقيتُهـــا ... ويحيـــا، إذا فارقتُهـــا، فيعـــودُ
يقولـــون: جاهـــدْ، يـــا جميـــلُ، بغـــزوةٍ، ... وأيَّ جهـــادٍ، غيـــرهنّ، أريـــدُ

---

[70] - عثرت به: عثر الفرس: زلّ وكبا، الوغى: الحرب، الكميت: جمع كمت: من الخيل ما كان بين الأسود والأحمر.

[71] هشّ: تبسّم.

[72] جَلد: قوة وصبر وصلابة.

[73] عينتني: أبصرتني.

[74] ألا: حرف استفتاح.

[75] الغمام: الغيم الماطر، السحاب حلّت: نزلت.

[76] الدّنوّ: القرب.

[77] سيليني: ينسيني.

[78] ديوان قيس بن ذريح قيس لبنى، ص: 70، 71.

[79] طارف وتليد: حديث وقديم.

[80] العروض: الطريق في عرض الجبل، في مضيق.

لكـــــلّ حـــــديثٍ بيـــــنهنَّ بشاشـــــةٌ وكـــــلُّ قتيـــــلٍ عنـــــدهنّ شـــــهيدُ[81]

قال جميل بثينة:

ألا ليـــــت ريعـــــانَ الشّـــــباب جديـــــدُ ودهـــــرا تـــــولّى، يـــــا بثـــــينَ، يعـــــودُ
فنبقـــــى كمـــــا كنّـــــا نكـــــون، وأنـــــتمُ قريـــــبٌ، وإذْ مـــــا تبـــــذُلين زهيـــــدُ
إذا قلـــــتُ: مـــــا بـــــي يـــــا بثينـــــةُ قـــــاتلي، مـــــن الحـــــبِّ، قالـــــتْ: ثابـــــتٌ، ويزيـــــدُ
وإنْ قلـــــتُ: رُدّي بعـــــضَ عقلـــــي أعـــــشْ بـــــه تولّـــــتْ، وقالـــــتْ: ذاك منـــــك بعيـــــدُ
فـــــلا أنـــــا مـــــردودٌ بمـــــا جئـــــتُ طالبـــــا، ولا حبُّهـــــا فيمـــــا يَبِيـــــدُ يَبِيـــــدُ
يمـــــوت الهـــــوى منـــــي إذا مـــــا لقيتُهـــــا ويحيـــــا، إذا فارقتُهـــــا، فيعـــــودُ
وقلـــــتُ لهـــــا: بينـــــي وبينـــــكِ، فـــــاعلمي، مـــــن الله ميثـــــاقٌ لـــــه وعهـــــودُ
وقـــــد كـــــان حُبِّـــــيكم طريفـــــا وتالـــــدا، ومـــــا الحـــــبُّ إلاّ طـــــارفٌ وتليـــــدُ[82]
وإنّ عـــــروضَ الوصـــــلِ بينـــــي وبينهـــــا، وإنْ ســـــهَّلَتْهُ بـــــالمنى لكـــــؤودُ[83]
وأفنيـــــتُ عمـــــري بانتظـــــاريَ وعـــــدَها، وأبليـــــتُ فيهـــــا الـــــدّهرَ، وهـــــو جديـــــدُ
يمـــــوت الهـــــوى منـــــي إذا مـــــا لقيتُهـــــا ويحيـــــا، إذا فارقتُهـــــا، فيعـــــودُ
يقولـــــون: جاهـــــدْ، يـــــا جميـــــلُ، بغـــــزوةٍ، وأيَّ جهـــــادٍ، غيـــــرهنّ، أريـــــدُ
لكـــــلّ حـــــديثٍ بيـــــنهنَّ بشاشـــــةٌ وكـــــلُّ قتيـــــلٍ عنـــــدهنّ شـــــهيدُ[84]

[81] ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت، ص: 38، 39، 40.

[82] طارف وتليد: حديث وقديم.

[83] العروض: الطريق في عرض الجبل، في مضيق.

[84] ديوان جميل بثينة، ص: 38، 39، 40.

المصادر والمراجع:

1) أحمد رضا: معجم متن اللغة، موسوعة لغويّة حديثة، المجلّد 04، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960.
2) أحمد عبد السّتّار الجواريّ: الحبّ العذريّ نشأته وتطوّره، دار الكتاب العربيّ، مصر.
3) أسيل محمّد ناصر: أثر التّرميز الفنّيّ في شعر الغزل العذريّ، الأنساق – الأبعاد - المستويات، دار الرّضوان للنّشر والتّوزيع، ط 1، عمّان، 2016.
4)
5) حسن أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة مصر، ط 1، القاهرة، 1947.
6) ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت.
7) ديوان عروة بن حزام، جمع وتحقيق وشرح أنطوان محسن القوال، دار الجيل، ط 1، بيروت، 1995.
8) ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، دراسة وتعليق يسري عبد الغني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1999.
9) ديوان قيس بن ذريح قيس لبنى، اعتنى به وشرحه عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط 2، 2004.
10) السّباعي بيّومي: تاريخ الأدب العربيّ في صدر الإسلام والعصر الأمويّ، الجزء الثّاني، مطبعة العلوم، ط 2، 1935.
11) شوقي ضيف: الحبّ العذريّ عند العرب، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، ط 1، 1999.
12) شوقي ضيف: العصر الإسلامي، دار المعارف، ط 7، مصر.
13) صادق جلال العظم: في الحبّ والحبّ العذريّ، دار المدى للثّقافة والنّشر، ط 1، سوريا، 1968، ص: 70.
14) صلاح عيد: الشعر العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، مكتبة الآداب، ط 1، القاهرة، 1993.
15) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت، 1981.
16) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج 3، دار المعارف، مصر، ط 3.
17) كريم قاسم جابر الرّبيعيّ: الغزل العذريّ حتّى نهاية العصر الأمويّ أصوله وبواعثه وبنيته الفنّيّة، مذكّرة ماجستير، كلّيّة التّربية، جامعة البصرة، 2012.
18) محمّد الحدّاد: حفريّات تأويليّة في الخطاب الإصلاحيّ العربيّ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، ط 1، بيروت، لبنان، 2002.

19)محمود مصطفى: الأدب العربيّ وتاريخه في عصريْ صدر الإسلام والدّولة الأمويّة، الجزء الأوّل، مطبعة مصطفى الباميّ الحلبيّ، ط 2، 1937.
20)يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة.